حيـــاة نابليون

تأليف الاســـتاذ حسن جلال

يقول الانجليز ، لا ينجح مثل النجاح ، وهذا ماأردده حين أتعرض للأستاذ حسن جلال ، فقد أخرج من قبل كتابه « الثورة الفرنسية » فكان توفيقه باهراً ، ثم طلع علينا أخيراً بكتابه « حياة نابليون » فكان بحق مثار الاعجاب والدهشة .

نعم ، الكتاب جدير باعجابنا وتقديرنا ، فها هى ذى كتب التاريخ الكبيرة بين أيدينا نقرؤها من غير شهية ، وهذا فى اعتقادى ناشئ من أن الكاتب لم تتشبع روحه بالموضوع ، ولم يهضم مادته هضما يمكنه من جعل الحقائق غذاء سائغا لقرائه ؛ وأستاذنا من هذه الناحية يحب تاريخ الثورة الفرنسية وعبد نابليون ويعجب به ، ولعل الكثير من تلاميذه لا يزال يذكر مقدار توفيقه فى تدريس هذه المادة ، الحق أن الاستاذ بلغ فى هذا منتهى ما يصل اليه الخيال من حدود التوفيق ، ذلك لأنه كان يقبل على عمله بعاطفة ، ولعل هذا يفسره إخراج هذين الكتابين .

فاذا كان الاستاذ قد أحب هذه الصفحة من التاريخ الفرنسى ، وصرف شطرا من عمره يبحث واتشبعت روحه بها ، فلا أقل من أن يضع بين يدى طلاب الثقافة عصارتها ، ومن ثم كان الكتاب سهلا سائغا يحبه القارىء وتلذه قراءته . ولا يفرغ منه إلا ليقرأه من جديد .

هناك نقطة أخرى ، هى الحقائق لا أكثر ولا أقل ، يسود المؤلفون بها صحائف الكتب ويلقونها على تلاميذهم دون أن يحاولوا استخلاص الآراء التى تحتجب وراءها ، أو بمعنى آخر دون أن يعلقوا عليها التعليق الذى يجعلها فيض نضارة وحياة وقوة . الى هذا كله فطن الأستاذ حسن جلال ، فلم يكن يهمه فى كتابه أن يعلم القارىء أن مئات الحوادث قد وقعت ، ولكن يهمه أن يصل بالقارىء الى ظروف حدوثها وكيف كان يفكر أبطالها ، ثم الى أى حد كتب لهم التوفيق ولماذا أصابهم النجاح أو ضرب عليهم الفشل ؛ ونرى فى « حياة نابليون » أن الاستاذ المؤلف يوجه القارىء بواسطة المعلومات التى ساقها فى مهارة ولباقة فائقين ، إلى سبل التطور وتتبعها ، وتفهم الاصول الاجتماعية والسياسية والخلقية والعقلية والاقتصادية التى أحاطت بالعصر الذى عاش فيه نابليون . أما مادة الكتاب فلم يكن الاستاذ مخترعا لها ، فالتاريخ انما يستخلص من المراجع ، ولكنا نجد بعض المؤلفين ينقلون صحائف برمتها من هذه المراجع ، ثم يكتبون صحائف أخرى بأنفسهم ، فلا نجد انسجاماً بين أجزاء الكتاب الواحد . والقارىء لكتاب الأستاذ جلال يلمس مهارة المؤلف فى اختيار مادة كتابه ، ويلمس كذلك الترتيب المنطقى للمعلومات ، وتبدو شخصية المؤلف الجذابة وروحه الخفيفة قويتين بحيث لا تميز خلالها روح مؤلف ممن رجع اليهم ، كل هذا برغم أن الكتابة عن الاشخاص فى نظرى أبعد أنواع الكتابة التاريخية منالا .

وليس عجيباً أن يكون الأستاذ هادئاً بطبعه ، ولكن العجيب أن يكون هادئاً حتى وهو يكتب هذه الحياة العاصفة ، لا يميل مع الانجليزى الذى يمثل نابليون أفعى نهشت سمومها ، ولا مع الفرنسى الذى يصور الرجل من قاده البشر الى الجريمة والاخاء والمساواة ، بل يجلس الأستاذ بينهما مجلس القضاء .

ومهارة الاستاذ فى القصص ، تفوق مهارته فى التاريخ ، فأنت حين تقرأ وصفه للقاء نابليون بجزفين بعد عودته من مصر ، تنسى التاريخ وتنسى كل شىء الا ذلك التصوير الرائع ، ولكنك لا تكاد تنتهى منه حتى تصدمك عنوانات تاريخية جافة (حالة فرنسا فى غياب بونابرت — انقلاب برومير — دستور ١٧٩٩) فتوقظك من ذلك الحلم وتعيدك الى حظيرة التاريخ مرة ثانية ؛ ذلك تصادفه كثيرا فى كتاب الاستاذ ؛ فهل نعتبر الكتاب قصيدة منثورة أو نعتبره قطعة من التاريخ ؟ أما رأيى فهو أن الكتاب تاريخ شعرى ، وما أحوج التاريخ الى ان يكون سائغا جميلا ، ولاسيما اذا تنبهنا الى ان الاستاذ لم يكتب لنا مؤلفا نضعه فى عداد المراجع التاريخية ، أو سفرا له قيمة السجلات الرسمية ، ولكنه صاغ حلقة من سلسلة المعارف العامة التى تعنى لجنة التأليف والترجمة والنشر بوضعها بين ايدى طلاب الثقافة . وآخر كلمة أقولها بعد ان قرأت (حياة نابليون) ان الاستاذ المؤلف قد عرض المؤرخين الذين ترجموا لهذا البطل صفا صفا ، استملاهم جميعا فأفرغوا ما كان يملأ جعبتهم (من وحى الهوى وتصوير الاعجاب وإملاء المقت وصدى الحفيظة) ثم ناقشهم الحساب العسير حتى عرف البواعث التى أملت ما قالوا ، وأخيراً قال كلمة العدالة التى عصبت عينيها ، ورفعت الميزان فى احدى يديها ، وأمسكت بالأخرى سلاحها ، فكانت كلمته فصل الخطاب ؟

عبد الفتاح السرنجاوى